

## الشاعر والطبيعة

بقلم نظمي خليل

... كل شيء في هذا العالم محاكاة ، والفن هو أكثر الأشياء محاكاة للطبيعة . والشعر هو أسمى أنواع الفنون ، لأنه لا يعطينا الصوت فقط كما تفعل الموسيقى ، أو الشكل فقط كما يفعل النحت ، أو اللون فقط كما يفعل التصوير ، ولكنه يمزج هذه كلها ويقدم لنا صورة حية تؤثر في الحواس كأنها الحقيقة بيمينها ، بل ربما كانت أكثر حقيقة من الحقيقة ذاتها ، لأن الشيء الذي لاراه إلا بالعين يكون خارجاً عنا ولا يقع تحت إدراكنا ، ولكن عند ما يصفه شاعر موهوب نراه وتشعر به أيضاً ، وتقف على مادق وصغر من كنهه الدفين . بل قد يتفتح هذا الشيء من تلقاء نفسه عند ما تسلط عليه عين شاعر نافذة فتكشف عن هائله في غير تستر ولا استخفاء

... ولكن الشاعر لا يحاكي ما يراه من مظاهر الطبيعة ومناظرها كما يحاكيها الرجل العادي ، بل هو لا ينظر إليها نظرة سطحية ساذجة كذلك التي يلقها الرجل العادي ، ولكن نظرة الشاعر أوسع وأشمل ، لأنه يعيش في عالم أوسع وأشمل وأعمق من عالمنا ، وينفذ بصيرته إلى جوهر الأشياء ولها . بل إن أذن الشاعر أكثر موسيقية وحساسية من أذن الرجل العادي لأنه يشعر ويسمع كل ما يحيط به من عالم الحس والموسيقى ، ويتبين أنغامه ويستمتع أصواته التوافقة الجميلة . فهو وحده الذي يستطيع أن ينفذ إلى قلب هذا العالم الذي يهتز دائماً بأنغام موسيقية مترنة ، وهو وحده الذي يمكنه أن يفصح عن هذا الجمال الموسيقي في صوت قوى جذاب ، لأن صوت الشاعر أقدر الأصوات وأصلحها لأداء هذه المهمة السامية الجليلة

فقد يقف إنسان على صخرة عالية وينظر إلى البحر الذي أمامه فيراه يتحرك ثم يصطفيق ثم يعلو ثم يفيض ثم يهتز ثم يلعب فلا تهيج فيه هذه الصور الجميلة المتتابعة شعوراً ولا تهز منه قلباً ، ولمسه لا يفتن إلى هذه التغيرات السريعة المتعاقبة ، ولا يفقه لهذه الحركات والنموجات المائية جمالاً ، ولكن هذه

الصور المتحركة الجميلة لا تعنى دون أن تثير في الشاعر نوعاً من الاحساس العميق القوي فتدفعه إلى تحريك اللسان ، كما حركت لسان تيسون من قبل فقال : « إن البحر التجمد يدلف تحته » أو كما حركت لسان بيرون في المحيط فقال : « مرحى ! مرحى ! أيتها الأمواج الزرقاء . مرحى مرحى أيتها المناور والفقاج ! إلى الأمام أيتها السفين إلى الأمام ! إن أرض الوطن قد توارت . أيتها الوطن سلام عليك ! اصطخب أيتها المحيط الأزرق العميق ، — اصطخب أيتها المحيط لقد أحبتك . وعلى صدرك كانت ملاعب صباي ، ومواطن سروري ؛ كنت أعبت بأموالك صيباً وكان ذلك أعظم سروري . فان جعلها البحر رعباً فأحبه رعباً ! كنت ألجأ إليك كأنتك أبي ، وأخذت إلى أمواجك القرية والعميدة ، وأمر يدي على لبك المتكاثفة كما أقفل هنا الآن . »

وقد يقف إنسان بجانب ماء آخر ليس لإمساك ولا متحركاً ، ولكنه مظلم عميق ، فلا يفكر في جمال هذه الصورة ولا يشعر بها ، لأنه لم يوهب حساسية غزيرة أو شعوراً قوياً عميقاً يدفعه إلى أن يديم النظر في مثل هذه الصورة الطبيعية الأخاذة ، ولكن الشاعر الذي يشعر بهذا الكون ويفكر في هذا الكون ، لا يفوته هذا الجمال الطبيعي الساذج فيصبح من تلقاء نفسه كما صاح تيسون من قبل إذ يقول : « إنها عين ماء نائمة »

... فالشعراء يشعرون بما حولهم من عالم الحس والطبيعة وهم لا يقنعون بهذا العالم الأرضي ، بل يشركونه بالعالم الساسي ، عالم الخيال ، دون أن ينفصلوا عن عالمهم الأول . أما أولئك الذين لا يحسون بهذا العالم الساسي ، عالم الفكر الدقيق ، والخيال البعيد ، فانهم لن يكونوا شعراء وإن كانوا يستطيعون النظم ونحت القوافي وقد يتبادى بعض الشعراء في شعورهم بهذا العالم الآخر — فينسبون أنفسهم وهم يخلقون اليه فيخلون الطريق ولا يستطيعون الرجوع إلى أوكارهم الأولى فيمضون بضربون بأجنحتهم في الفضاء على غير هدى حتى ينالهم التعب ويلحقهم اليأس فيهون من ساء عليائهم محطمين . . . .

... فالشعراء حقاً هم الذين يصلون العالمين ، ويجمعون بين الحياتين : حياة الواقع وحياة الخيال . الشعراء حقاً هم الذين يتأثرون بما حولهم يأخذون جانباً كبيراً من عواطفهم من العالم الظاهري ، من نسائه وأزهاره وأجوائه ودقائقه ،

ممرعة نبتت حول بعض الآبار ، وقطماناً من الأبل تروح وتندو  
على هذه المراعى الخضراء . هذا ما كان يراه ، وهذا ما ألف  
رؤيته كل يوم ، فلم يحاول له تغييراً . . .

لم يعرف حياة الاستقرار والطأنينة ، ولم يتعود حياة الرفاهية  
والكسل ، بل كانت حياته حرباً مع الطبيعة ، لا ينفك عن  
الصراع معها . لذلك جاء شعره صدى لتلك الحياة القوية العنيفة  
التي كان يحياها قوياً عنيفاً ، يصبر عما كان يمصف بقلبه من  
أشواق ولهب ، وما يتنازع من نورات وزرات . ومن أجل  
هذا يرى الشعر الجاهل أصدق أنواع الشعر لسلامة نفوس  
قائله . فهو شمر الفطرة والسذاجة لا شعر الصنعة والتكلف .  
هو خال من كل فن ورياء ، يكشف عن نفسية عربية سليمة ،  
وروح أبية كريمة . ومن أجل هذا نجد كل ما في هذا الشعر من  
صور قد أخذها الشاعر مما حوله ، فهو يستهل قصيدته بوصف  
الأطلال ، ودار الحبيبة التي أقفرت وخلت بعد أهلها . ثم يصف  
النوى والأحجار التي حول هذه البيوت ، وكيف أن هذه النوى  
قد أعانت على معرفة هذه الديار بعد غياب دام سنين طوالاً ، ثم  
يذكر حبيته وما كان بينهما من حب ، وينتقل من هذا  
إلى وصف ناقته وصفاً دقيقاً ، يصف جسمها وسرعتها ، وصبرها  
على وعورة الطريق وبعد السفر . ثم ينتقل بعد هذا إلى موضوع  
القصيدة من مدح أو نخر

هذا شأن الشاعر الجاهل الذي عاش في قلب الطبيعة ، والذي  
تأثر بالطبيعة ، ففاضت نفسه بحبها والاشادة بحملها .

فأين شعراء مصر اليوم من أولئك البدو الذين صوروا لنا  
تلك المناظر الجافة من رمال وجبال وأطلال قد لا تثير إعجاباً ،  
ولا تهز قلب من رآها اليوم في صور شعرية كلها صدق وجمال  
ما بال شعرائنا المصريين قد جهلوا الطبيعة وتنافلوا عن أثرها  
القوى في حياة الشعر وخلوده ؟

. . . إن أدبنا المصري الحديث على ما يزره من دواوين  
شعرية لا تمد ، وكتب نثرية لا تحصى ، أمجز من أن يقف بجانب  
غيره من الآداب الغربية كالفرنسي أو الانجليزي في وصف الطبيعة .  
فاذا عرضنا إلى الأدب المصري الحديث فافتنا نجده خلواً من  
الأوصاف الطبيعية والصور الريفية

ثم هم يلقون على هذه المواطن ألواناً من العالم الخفي حتى تظهر  
كأنها غريبة عنا . . .

فالشاعر لا يرى الأسد كما يراه عالم الحيوان ، ولكنه يخلع عليه  
صوراً تجمع بين ضروب المشابهة والصد ، فيتأمل في حالات عذبة  
كالذعر والخوف والإعجاب ، وقد يأتي وصفه بعيداً عن الحقيقة ،  
واسكنه وصف شعري جميل على كل حال

فليس المهم في الأمر هو صدق الوصف ومطابقته للواقع أو عدم  
مطابقته ، بل الشيء المهم هو صدق عاطفة الشاعر . فان لم يكن  
الشاعر صادق الشعور والعاطفة جاء شعره رديئاً . . . ووصفه غثاً  
. . . ونظرة الشاعر لزهرة السوسن الأبيض ليست كنظرة  
البستاني لها ، وليست نظرة هذين الاثنين كنظرة عالم النبات  
الأخصائي . فاذا سألت البستاني عن هذه السوسنة لم يزد على أن  
يذكر اسمها ؛ هذه حقيقة ، ولكن الشاعر لا يقف عندها بل  
قد يحبك كما أجاب « سينسر » « إنها سيدة الحديقة » وهنا  
نبتدى نحس يعض ما في هذه الزهرة من جمال شعري وحسن ،  
وقد يأتي شاعر آخر « كبن جونسون » وينظر إلى هذه السوسنة  
متأملاً فيقول « إنها نبتة الضوء وزهرته » وهكذا يظهر لنا  
الشعر الجميل هذه الزهرة في حلل بهائها ومصرها الدفين

\*\*\*

الآن وقد عرفنا أن مادة الشعر هي الحياة ، كما هي مادة كل  
فن آخر من الفنون السامية ، وأن غذاءه من الطبيعة ، وهي  
غذاء سائر الفنون ، نريد أن نعرف مدى تأثير طبيعة إقليمنا  
المصري في شعرائنا المصريين

لقد قدمت أن الشاعر الحق هو الذي يشعر بما حوله ، أى  
هو الذي يحس بطبيعة بلاده أو البلاد التي يعيش فيها ، فيتأثر  
بجوها ، ويستلم سماءها ومناظرها ، فتوحى إليه بواطن الأشعار  
هذا ما كان عليه ذلك الشاعر الجاهل الذي عاش في  
الصحراء ، والذي أفصح عن حياته البسيطة الساذجة في أسلوب  
شعري دافق

عاش الشاعر العربي القديم تحت سماء صافية سافرة ، وفوق  
رمال مترامية متعلة ، وجبال تتفاوت علواً وانخفاضاً . يجبل  
بصره فيما حوله فلا يرى إلا كشتاناً من الرمال ، وأودية

بصوتك إذا ما خلغ الليل رداء السحب وسقطت أشعة القمر  
الباردة فعمرت الكون . . . أيها الطائر إنك شاعر غتبيء في  
ضوء الفكر يترنم بأناشيد الخلود ، حتى يتنبه له العالم فيحنو على  
الآمال ولا يبالى بالخاوف . . . خبرني من أي الناييع تستقي  
سمادتك ؟ أمن الحقول ، أمن الأمواج ؟ أم من الجبال ، أم من  
الأجواء ، أم من السهول ؟ إن سرورك الصافي العميق لن يفتر  
ولن يقل ، وإن شبح الكدر لن يحوم حولك ، إنك تحب ،  
ولكنك لم تشرب قط ثمالة الحب المحزنة . . . »

وقد تحس وأنت تقرأ شعر يبرون بذلك التجاوب القوى  
بين روح الشاعر وروح الطبيعة . تلحظ ذلك واضحاً في سياحته  
الثانية في أوروبا عندما يترك الآثار والتاريخ والمجد والشهرة  
والشعوب وماضيها وينحاز الى جانب الطبيعة ، فيتحدث اليها  
في شعر عذب رقيق ، فيقول : « إن الطبيعة المحبوبة لا تزال أبر  
أم بنا ، ومع أنها دأمة التغير فهي باسمه دائماً ، فدعني أرتمي على  
صدرها العاري الحنون ، فإنها لم تقطم ابناً وإن لم يكن عزيزاً  
ليها . . . لأنها أجل ما تكون في مظاهرها الوحشية حيث  
لا شيء إلا السذاجة والفطرة والبعد عن كل زينة وصنعة . إنها  
تبتسم لي دائماً ، ليل نهار ، مع أني أرقبها حيث يخلو الطريق  
من الناس ، وأبحث عنها في دأب وصبر ، وأحبها في شغف  
وكلف عند الغضب . . . أيتها البحيرة الساكنة السطح  
الراقدة الماء . لقد لجأت اليك في هذا العالم الصامت . إن فيك  
لدفناً لغواً ، وإن في مياهاك الهادئة لراحة لنفسى وسلواناً . . طالما  
أحببت اصطخاب البحر وزئيره ولكن وسوسة مياهاك الناعمة  
والهدير المردد بين ضفافك يرن في أذني حلو الانتقام كأنه صوت  
أختي أتاني خلال مياهاك . . . إن أقوى اللذات لاتبعث بروحي  
هكذا . . . »

. . . هاهو الليل . . . أيها الليل الجليل . إنك لم ترسل للنوم .  
دعني أقاسمك أنسك ووحشتك ، وأتلاش في العاصفة وأفن فيك . .  
كيف تضيء البحيرة ، وكيف يلعب البحر ويأتي المطر راقصاً  
مهتماً الى الأرض . . »

. . . قد يقول قائل إن الطبيعة المصرية خلو من مناظر  
سويسرا ، مفتقرة الى الجبال الشائخة والوديان العميقة والبحيرات

أليس من النقص الميب في أدبنا المصري ألا ترى فيه أغاني  
شعبية تترج بالطبيعة المصرية وتصطبغ بالصبغة القومية ؟ أليس  
من الميب أيضاً أن نجد شاعراً إنجليزياً « كلبي هنت » يصف  
النيل ويستمتع الى ضحكات كليوباترة وسط خرير مائه العذب  
ويستوحى طبيعة مصر الشاعرة فتأتيه الصور متراحة فيندفع  
شعوره مع تيار النهر ويمتزج بطبيعته ثم يفيض على جانبيه  
شعراً قوياً جميلاً ؟ بل أليس منظر الفيضان وجريان مائه في قلب  
الوادي مما يثير في كل مصري شعور العزة والمجد والفخر ، ويهز  
قلب كل شاعر مصري فيترنم بأناشيد الحب والجمال . . ليس من  
شك في أن طبيعتنا المصرية طبيعة جميلة ، شاعرة ، وليس من  
شك في أن طبيعتنا المصرية طبيعة هادئة تبعث على التأمل  
والتفكير . . ولكن لم لم تلهم شعراءنا المصريين هذا الشعور  
القوى والاحساس الغزير الذي نحسه في شعراء الطبيعة الغربيين  
ولا سيما الإنجليز ؟ إن الذي يقرأ ورد زورث ويبرون وشلي  
وكيتس ، وغيرهم من الشعراء الابتداعيين الذين ظهروا في أوائل  
القرن التاسع عشر يشمر بقوة هذا الشعر وأثر الطبيعة فيه ، بل  
يشعر بأن روح الشاعر قد امتزجت بما حولها من الجبال والوديان  
والبحيرات والبحار فصارت جزءاً منها

. . . ومن يقرأ « شلي » يقف على سر إحساسه بالجمال . فهو  
لم يرض بهذا العالم ليكون مأوى صالحاً لروحه ، ولكنه لم يجعله  
عدواً لثله الأعلى . فهو يتساءل لم لا يكون جميلاً كالبحار والنجوم  
والبحيرات والغابات والجبال . فطبيعة شلي كانت مبالغة دائماً الى  
ازدراء الحقيقة

وإن من يقرأ سناجاة شلي للقبرة يقف على تلك العاطفة القوية ،  
عاطفة الحب التي تسلطت على جميع مشاعره ، فهو يقول : « سلام  
عليك أيها الطائر السامي الذي لم تلامس الأرض ، ولكنك تخلق  
في أطباق السماء العاصرة بينايين الفن الأصلية حيث تنسكب في  
قلبك . ترتفع عن الأرض وتسمو عالياً وعالياً كحجابه من نار ،  
وترفرف بجناحيك في أعماق الجو الصافي . ثم تشدو وأنت تقني ،  
وتقني وأنت تشدو . . . في الأنوار الذهبية للشمس الفارقة في  
بحار السحب تطير وتسبح . أيها الطائر إنك وإن كنت بعيداً  
عن أنظارنا ، ولكني أسمع أنشودة سرورك ، تملأ الأرض والجو

## آخر طلق من بندقيتي

للإمارتين

خرجت ذات يوم للصيد ، فلمحت على بعد ظيباً تلوح عليه  
دلائل الطهارة والغبطة وهو يقفز مرحاً فوق الخضرة التي بللها  
الندى

ويظهر أن الفريزة التي تحلقها العادة تغلب دائماً على الطبيعة  
النفور من القتل ، ولذلك لم أشعر إلا وقد فُتت رصاصتي إحدى  
كتفيه . وعندئذ أخذت أقرب منه وقد هرب دى واضطربت  
نفسى ، لأن ذلك الحيوان الوديع كان ورأسه ملقٍ فوق العشب  
ينظر إلىّ بعينين تسبح في مآقيهما الدموع

نعم إننى لن أنسى تلك النظرة التي جمعت بين دهشته وألمه ،  
لأنها كشفت لى عن مبلغ شعوره الناطق وإن كان أبكم . شعرت  
كأنها توجه إلىّ مرير العتب على قسوتى التي لم تقم على سبب ،  
وكأنها تقول لى :

« من أنت ؟ إننى ما أسأت إليك . بل ربما كنت من  
الصابرين على حبك . فلم طعننى تلك الطئنة القاتلة ؟ ولم تطمع  
فى حصتى من السماء والهواء والنور وتحول بينى وبين الحياة  
والشباب ؟ ماذا يكون حال أوى واخوتى وصنارى وصحبى وم رقبون  
عودتى إذا لم يروا بعد ذلك إلا بعض تنف مبعة من صوفى على أثر  
اعتدائك ، وهذه النقطة من دى الذى لطخت به وجه هذا العشب  
النضير ؟ أفأنتك أن فى السماء منتقماً لى وقاضياً لك ؟ ومع ذلك فقد  
صفحت عنك ، وهماهاتان عينائى لم يمد فيهما أثر للحقد ، لأننى  
فطِرت على التسامح ، حتى مع قاتلى ! » محمود ضيرت

أرجو أن تكون طبيعتنا المصرية قوية كما هى جميلة ، ساحرة  
كما هى هادئة . وأرجو أن يكون هذا النقص راجعاً الى شعرائنا  
الذين لا يكادون يشبون حتى يتركوا أهم الروم وينسون موطهم  
الأول ويدلجون فى ظلم الحياة فتلهيهم عن ذلك المستودع الغنى  
بفنون الحسن والجمال

تلقى فيليب

بكالوريوس فى الأدب الإنجليزي

الجميلة . فهى طبيعة هادئة لينة أقرب الى الضعف منها الى القوة .  
وقد يشتط فى القول فيملل ضعف أثر الطبيعة فى نفوس شعرائنا  
المصريين بعدم وجود الميانات الثلجية والجو القارس  
الذى يبعث النشاط والحركة . قد يكون لهذا الاعتراض بعض  
وجاهته . وقد تكون الطبيعة المصرية مفتقرة الى هذا العنصر  
من عناصر القوة ، وقد تكون الطبيعة المصرية متشابهة المناظر  
موحدة الصور . فقد لا يشعر السافر من الأسكندرية الى أسوان  
باختلاف كبير فى طبيعة وادى النيل ، فقد يجد سهولاً مترامية  
تكسوها النباتات الخضراء فى أراضى الدلتا . وقد يجد وادياً  
ضيقاً تكثفه على الجانبين جبال تتفاوت فى الهمد والقرب فى  
أقليم الصعيد

قد تكون وحدة الصور هى التي عملت على إضمار أثر  
الطبيعة فى نفوس شعرائنا فجعلتهم ينصرفون عنها ، ويستوحون  
طبيعة أوروبا ذات الصور المتعددة والأشكال المتباينة . قد يكون  
لوحدة الطبيعة المصرية ، وقرب تشابهها بعض الأثر . ولكن  
هذا الأثر لا يجعل شعراءنا وكتابنا ينسون أو يتجاهلون أثر الأقليم  
المصرى كله ، أثر ذلك الجو الصافى والسماء الزرقاء والحقول  
النبسطة

إنى لا أنكر أن بيننا كتاباً وشعراء طبيعيين قد أحسوا بما  
جهله غيرهم ، وأنهم قد شعروا بهذا النقص المغيب فى أدبنا  
فأرادوا أن يسدوه

... ولكن أساءل فى صراحة غير جارحة ، هل كان  
شعورهم بطبيعة بلادهم آتياً من طبيعة نفوسهم . هل أووا الى طبيعة  
بلادهم يستلهمونها هذا الفن الخالد ، فن الأدب السامى الرفيع  
بدافع نفسى خالص ، أم أن أثر الثقافة الغربية والتأثر بالشعراء  
الابتداعيين فى فرنسا وإنجلترا كان هو الوجه لهم الى ذلك ...

... إنى أخاف أن يكون هذا صحيحاً . وأخاف أن تكون طبيعتنا  
المصرية الجميلة الساحرة ، طبيعتنا المصرية التأملية المفكرة قد عجزت  
عن أن تلهم شعراء مصر الشغور بالجمال والغبطة والهدوء . أخاف  
أن تكون طبيعتنا المصرية الشاعرة عاجزة عن أن تستأثر بأبنائها  
الكتاب والشعراء فتجذبهم نحوها وتغنى فيهم ويفنون فيها  
كما تفعل الطبيعة الانجليزية مثلاً ...